

لماذا انخرص على الحرية معركة الحرية معركة حياة او موت

كانت عقيدتنا^(١) دوماً ان الحرية ليست شيئاً كمالياً في حياة الامة يمكن الاستغناء عنه، بل انها أساس هذه الحياة وجوهرها ومعناها. والحرية لاتتجزأ فلا يمكن أن نشور على الاستعمار الاجنبي ثم نسكت عن الاستبداد الوطني، لأن الدافع الذي كان يحركنا ضد الاستعمار هو نفسه الذي يمنعنا الآن من الرضا بالاستبداد. ونحن مقتنعون بأن الاستعمار هو خطر مائل دوماً، ممكن الوقوع أبداً، فاذا عود الشعب على الاستهانة بالحرية والرضا بالخنوع، كان معرضاً في كل دقيقة لعودة الاستعمار الاجنبي من جديد. أما الذين لا يستطيعون أن يحكموا الشعب الا اذا استعبده، فهذا الشعب الذي غلب الاستعمار سوف يريهم كيف يستطيع التخلص من حكمهم والتحرر من عبوديتهم.

ان الفئة المتحكمة اليوم بمصير البلاد مسوقة حتماً الى استغلال الحكم بكل الوسائل، لأنها مضطرة الى ارضاء الاسر الكبيرة التي انما جاءت هذه الفئة الى الحكم لتمثل مصالحها، والى ارضاء الانصار الذين تعتمد عليهم، وتيسير مصالح كبار التجار الذين يسندونها في الظروف الحرجة. ولكن هذا الاستغلال لثروة البلاد

(١) نشر في جريدة «البعث» في ٩ آب ١٩٤٦.

وظائف الدولة ليس هو اكبر اخطار هذه الفئة، لأن البلاد قد تحملت من استغلال المستعمر وسرقاته ما هو أشد وادهى، واستطاعت بالرغم من ذلك ان تحتفظ بقواها النضالية وتظفر آخر الأمر باستقلالها، ولكن الخطر الحقيقي الجسيم هو في ان الفئة الحاكمة، لكي تصل الى ما تريد من استغلال لثروة البلاد ووظائف الدولة، لا تستطيع ان تلجأ، كما كان يفعل المستعمر، الى قوة الجيش، او أن تتذرع بحق الفتح، ولا بد لها لذلك من ان تحتال على دستور الدولة وقوانينها، لكي تحول دون مراقبة الشعب لها، واعتراضه على اعمالها، ومن هنا يأتي عداؤها للحرية وأعداؤها عليها.

هكذا تبيع الفئة الحاكمة لنفسها ان تضحي بأهم مقومات حياة الامة واقدس قيمها، وهي الحرية، في سبيل ضمان الاستغلال المادي، فالحرية لاتعني غير تربية الشعب تربية اخلاقية قومية صحيحة. اما الشعب الذي يحال بينه وبين الاطلاع على الحقيقة ويرى الخطأ فلا يتمكن من اصلاحه، ويلمس الفساد الصارخ فلا يسمح له بأن يرفع صوته في وجهه، ويشاهد ارادته تشوه أمامه فيراض بالضغط والحيلة والرشوة على قبول هذا التشويه، والنظر الى مشوهي ارادته، وخائني أمانته، على أنهم ممثلوه الشرعيون الحقيقيون، ان شعباً كهذا لا يقوده الحكام نحو الاستقلال والحكم الذاتي، بل يقتلون فيه الفضائل التي كسب بها استقلاله ويطفئون في قلبه الشعلة التي وعى على ضوءها ذاته، ويعرضون حرية وطنه للضياع، لأنهم أفسدوا عليه معنى الحرية.

وبعد، فلسنا في حرصنا على الحرية ودفاعنا عنها نتعلق بشيء نظري لا علاقة له بالواقع، فالحرية هي التي تسمح للشعب ان يعرف اين يذهب خبزه اليومي، وكيف تبذر ثروته وثمار عمله وانتاجه، ولماذا يتلاعب الحكام بالوظائف ويفسدون الضمائر ويعبثون بالكفاءة، ويستبعدون النزاهة، لكي يضمّنوا نجاحهم في الانتخابات، ويبقوا البلاد في قبضتهم مانعين عنها كل تقدم، فارضين عليها الاستمرار في التدهور الاخلاقي والافلاس المادي. والحرية هي التي تتيح للشعب ان يعرف المدى الذي بلغه في تحقيق استقلاله وتوطيده، والنواقص التي تشوب هذا

الاستقلال والاختيار الاجنبية التي تهدده فيدرك السبب في هذا التقصير الملموس تجاه قضية حيوية كقضية فلسطين. ويعرف السر في هيمنة النفوذ الاجنبي على سياستنا العربية، وانحصارنا في نطاق هذا النفوذ وتقيدها به. ويطلع اخيراً على تغلغل الشراكات الاجنبية في بلادنا، وابتلاعها لنقدنا وثرواتنا واستبدالها بعمالنا، وتآمرها علينا بشكل يجعل من استقلالنا هيكلاً عظيماً للحم فيه ولا دم.

فالدفاع عن الحرية اذن هو دفاع عن حياتنا، لذلك فمعركة الحرية ستكون معركة حياة أو موت، ولن نخدعنا تلك الحجج الواهية التي تتذرع بها الحكومة لتقول ان للحرية أضراراً ومحاذير. فنفع الحرية يربو على ضررها، وان اطمئناننا على سلامة أرضنا واخلاق أمتنا، ومستقبل أجيالنا، لأعز علينا وأعلى عندنا من الحرص على هيئة الحكم وراحة الحاكمين.

ليست الحرية مواد في الدستور، ونصوصاً في القوانين، وليست هي مجرد موضوع للخطابة والكتابة، ولكنها عمل قبل كل شيء، إنها لن تدخل حياتنا ما لم نرخص الحياة في سبيلها، ولن نفرض على الحاكمين احترامها، ونشعر الشعب بقيمتها وقديستها، اذا لم يكن ايماننا بها جهاداً، ودفاعنا عنها استشهاداً.

٩ آب ١٩٤٦